

موقف المستشرقين من الإسلام والفكر الإسلامي القديم

نظرة موضوعية عامة

دكتور/ مهدي فضل الله*

الاستشراق مصطلح عام واسع عصي على التعريف العلمي الدقيق وفقاً لعلم المنطق وقواعده في التعريف . يرتبط موضوعه بدراسة الإسلام ديناً وحضارة . ويستحيل الحكم عليه بمجمله سلباً أو إيجاباً ، بالصحة أو الخطأ لكثرة رواه المتعددي الأهواء والغايات ، والمتوعين بتنوع مواقف دؤهم إزاء الشرق منذ بداية الحملات الصليبية على الشرق وبدء العلاقة بينه وبين الغرب .

ولا تكمن الصعوبة فقط في الحكم سلباً أو إيجاباً على الاستشراق برمته ، وإنما تكمن كذلك وعلى الأغلب ، في الحكم على كل فرد من أفرادهِ : لأننا قد نجد في نتاج كل واحد منهم ، الموضوعية والهوي ، والصحة والخطأ ، وما نوافق عليه وما لا نوافق عليه .

وقد عُقد أول مؤتمر للمستشرقين سنة ١٨٣٢ م في باريس . وتم الاتفاق في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين الذي عُقد في باريس سنة ١٩٧٣ م ، على تسمية مؤتمرهم: المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشمالية ، وذلك لما تحمله كلمة الاستشراق من صورة كربية في أذهان العرب والمسلمين فهم يعتبرونه نوعاً من الغزو الفكري والثقافي والديني لبلادهم بموازاة الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي ، وأداة طيعة في خدمة الدوائر السياسية والاستخبارية الغربية . ولذا فهم يرفضون أن يكونوا مادة للدراسة الدائمة للانتفاع منها في تعامل الغرب المستعمر معهم .

وحتى تجيء أحكامنا أقرب إلى الصحة ومن غير الوقوع في شرك التعميم والجزم ، يمكننا القول بأن بعض المستشرقين مثل : غيلبرت دونوجنت Gguilbert de nojent - الذي

* كلية الاجتهاد والعلوم الإسلامية — الجامعة — لبنان.

عند النبي محمد ﷺ ساحراً ، استطاع عن طريق السحر والخديعة وإباحة العلاقات الجنسية الترويج لدعوته بين أناس غلب عليهم الجهل والفقر .

-وأ. كينن ، وآرثر ميلر ، وغيرهم^(١) نظروا إلى الدين الإسلامي وإلى تراث المسلمين الفكري نظرة ازدراء واستعلاء . ورأوا أن تخلف العرب والمسلمين في ميدان الفكر والحضارة إنما يعود إلى الإسلام الذي يشكل بعقيدته المطلقة التي تؤمن إيماناً تاماً بالقضاء والقدر . ثقافة جامدة لا تقبل التغير ولا التطور . أبقّت المسلمين منذ نشأهم أمة جامدة متعصبة ، وما زالت تقيد حياتهم الفكرية الجامدة بقيد ثقيلة لم يعد من الممكن التحرر منها .

وقد اعتبر بعض المستشرقين ومن مختلف مدارس الاستشراق : الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والألمانية الخ ، مثل إجتس جولد تسهير الهجري (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) مؤلف كتاب : محاضرات في الإسلام ، الذي يعالج الفصل الرابع منه ، موضوع التصوف في الإسلام . وكيف تطور بفعل الفلسفة الهيلينية والديانات الهندية والفارسية الخ ، من زهد بسيط حتى وصل إلى مذهب وحدة الوجود عند متصوفي القرن السابع الهجري . وإرنولد نيكلسون ، الإنكليزي (١٨٦٨ - ١٩٤٥) مؤلف كتابي : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، والتصوفية في الإسلام . وأسس بلايوس الإسباني (١٨٧١ - ١٩٤٤ م) مؤلف كتاب : ابن عربي : حياته ومذهبه . وثيودور نولدكه الألماني (١٨٣٦ - ١٩٣٠ م) مؤلف كتاب : تاريخ القرآن ، والذي أرجع كلمة التصوف إلى الصوف علي ضوء التحليل الفيلولوجي لهذه الكلمة . ولوس ماسنيون ، الفرنسي (١٨٨٣ - ١٩٦٢ م) ناشر : ديوان الخلاج (١٩٣٠) وكتاب : الطواسين ... الخ - أقول : اعتبروا أن التصوف الإسلامي لم يكن ثمرة خاصة بالدين الإسلامي وإنما كان ثمرة تأثر المسلمين بأصول أجنبية عن الإسلام ، كاليهودية والمسيحية والبوذية والفارسية والفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وبخاصة العقيدة المسيحية ، وقد استفاد المسلمون الزهد وارتداء الصوف من رهبان الأديرة المسيحية التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية والعالم الإسلامي وهكذا فهم يجعلون التصوف الإسلامي وبغير وجه حق ، ملحقاً بالمسيحية خاصة وبسائر الديانات والفلسفات القديمة عامة . وقد فسر لويس ماسنيون نصوص الحسين بن منصور الخلاج (٢٤٤ - ٣٠٩ هـ) علي هواه ، فرأى أن الخلاج كان مسيحياً بالشوق ، مسيحياً الابتلاء وبذل الذات والافتداء كالمسيح ، وقُتل صلباً مثله لأنه نادي بأنه الله ، وبأنه الحق الخالق .^(٢)

وقد رأي هنري كوربان ، الفرنسي (١٩٠٣ - ١٩٧٨ م) في كتابه : في الإسلام الإيراني ، أن ثمة شبهة بين تصوف السهروردي المقتول وبين الزرادشتية ، ونظر إلي التصوف والتشيع الباطني من خلال نظرياته وآرائه الخاصة . (٣)

ولم تخل دراسات الكثيرين من المستشرقين - مثل جورج سيل ، الإنكليزي (١٦٩٧ - ١٧٣٦ م) الذي ترجم القرآن إلي الإنكليزية وقدم له بمقدمة حفلت بالكثير من الافتراءات والمغالطات . ووليم ميور ، الإنكليزي (١٨١٩ - ١٩٠٥ م) مؤلف : القرآن : تأليفه وتعاليمه . شهادة القرآن علي الكعب اليهودية والمسيحية . سيرة الرسول (أربعة مجلدات) ... الخ . وتوماس وولكر آرنولد . الإنكليزي (١٨٦٤ - ١٩٣٠ م) مؤلف كتابي : تراث الإسلام و : اليهود وما ليس رونفن الإنكليزي (١٩٤٢ م) مؤلف كتاب : الإسلام في العالم . وآرثر جون آربري ، الإنكليزي (١٩٠٥ - ١٩٦٩ م) مؤلف : الإسلام اليوم . مقدمة لتاريخ التصوف ، وإميل درمنغهام مؤلف كتابي : حياة محمد ، ومحمد والسنة الإسلامية ، وصموئيل زويمر الأمريكي (١٨٦٧ - ١٩٥٢) مؤلف كتابي : الإسلام ، ويسوع في إحياء الغزالي ، ودونكان بلاك ماكدونالد الأمريكي (١٩٤٣) مؤلف كتاب : تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام ، وديلاسي أوليري الفرنسي مؤلف كتاب : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ، الذي يرجع عقيدة الإسلام والفقه الإسلامي وفلسفة المسلمين وعلومهم وتصوفهم إلى المسيحية والفلسفة الهيلينية والأفلاطونية الحديثة والقانون الروماني ، وارنست رينان الفرنسي (١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) .

مؤلف كتاب : ابن رشد والرشدين ، والذي له موقف معروف من الإسلام والمسلمين ، فالإسلام بحكم نشأته لا يشجع علي العلم والفلسفة والبحث الحر ، والعرب والمسلمون لا يصلحون بطبيعتهم للنظر في علوم ما وراء الطبيعة ، ودور العرب في النهضة العلمية الإسلامية كان قليلاً جداً ، وهي إنتاج إسلامي لشعوب غير إسلامية ، وقد رد عليه كل من جمال الدين الأفغاني في جريدة : ديبا الفرنسية ، والشيخ محمد عبده في كتاب : الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ، وهرتويج هيرشفيلد الألماني (١٨٥٤ - ١٩٣٤ م) مؤلف كتاب : العناصر اليهودية في القرآن ، وكارل بيكر الألماني (١٨٧٦ - ١٩٦٣ م) الذي اهتم بدراسة الأديان وتأثير العوامل الاقتصادية والعناصر المسيحية واليونانية في الحضارة الإسلامية ، وفلهلم رودلف الألماني مؤلف كتاب : صلة

القرآن باليهودية والمسيحية، وليوني كايثاني الإيطالي (١٨٦٩-١٩٢٧م) مؤلف كتاب: دراسة التاريخ الشرقي، سيرة الرسول ﷺ، وكذلك: الخوليات (عشرة مجلدات).
أقول لم تخل هذه الدراسة من:

الحقد والتعصب والتحيز والافتراءات والمغالطات والبعد عن الموضوعية، وهي تجعل من مجمل التراث العربي الإسلامي والحضارة الإسلامية تبعاً للمسيحية والفلسفة اليونانية، فالقرآن نسخة معدلة من اليهودية والمسيحية، والمعتزلة المعطلة للصفات أخذوا فكرة نفي الصفات من المسيحية، والشيعية أخذوا فكرة تقديس الإمام من المسيحية، والفلاسفة والعلماء المسلمون استفادوا فلسفتهم وعلومهم المختلفة من الفلاسفة اليونانيين... الخ، وفي هذا الصدد يقول المستشرق فرانتز روزنتال في كتابه: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، إن أحكام أ. كين وآرثر ميلر وغيرهما من المستشرقين المتحيزة التي تشوه الصورة العامة للحضارة الإسلامية لا قيمة علمية لها، وذلك إذا ما تعمقنا في دراسة البحث العلمي عند المسلمين ودراسة الأدب والفلسفة والتاريخ، كما يقول المستشرق الفرنسي: ألفونس إتيان دينيه (١٨٦١-١٩٢٩م) في كتابه: محمد رسول الله: "إنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ويبتهم ونزعتهم المختلفة، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يغشي على صورتهم الحقيقية من شدة التحريف فيها.... إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة.." ^(٤) كذلك يقول جواد علي في الجزء الأول المتعلق بالسيرة النبوية من موسوعته: تاريخ العرب في الإسلام: إن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو ممن تخرج من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني، وطائفة المستشرقين من اليهود يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع السلطان العواطف والأهواء. والجدير بالذكر، أن أشد المستشرقين في القرنين التاسع عشر والعشرين تعصباً للمسيحية، وعداء للإسلام، وبعداً عن الموضوعية في البحث، هو الأب هنري لامنس البلجيكي (١٨٦٢-١٩٣٧م) والذي يفتقر إلى التراحم في أبحاثه وإلى الأمانة في نقل النصوص وفهمها والإحالة إليها، فأبحاثه المتعلقة بالسيرة النبوية كلها ومنها: مكة عشية الهجرة، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة، غربي الجزيرة العربية قبل الهجرة، الذي يتحدث عن اليهودية والنصرانية وديانات

العرب قبل الإسلام: هل كان محمد صادقاً؟ الحكومة الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيده، فاطمة وبنات محمد... الخ، هذه الأبحاث تملؤها الأكاذيب والمغالطات والأحكام المتعسفة التي لا سند لها ولا دليل عليها، وهو على غرار المستشرق الإيطالي ليوني كايثاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦م) لا يقيم وزناً لكتب الحديث النبوي والسيرة النبوية، ويرى أنها قد وضعت جميعها من أجل غاية واحدة هي تجميد حياة النبي ليس إلا، وذلك من دون أن يقدم أدلة على صدق دعواه.

كما أن أبحاثه المتعلقة بتاريخ الدولة الأموية، ومنها: دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول، خلافة يزيد الأول، دراسات عن عصر الأمويين، الإسلام عقائد ونظم...، والتي تبلغ في تمجيد الأمويين وحكمهم، وتبرر أشنع جرائم يزيد وغيره من الحكام الأمويين، أبحاث تملؤها الأحقاد على الإسلام وكرهيته في غل منقطع النظر؛ وهي تناقض ما ذهب إليه يوليوس فلهاوزن في كتابه: الدولة العربية وسقوطها، كما أنها أثارت نفور المستشرق الفرنسي بيير كازانوف الذي يقول في كتابه: محمد وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام: "يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب لامنس، يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة، ساخرًا من سذاجة علي... وإنما لعربية حقاً هذه المباحث التي يبدي فيها المؤلف تشييعه للأمويين ضد بني هاشم، والتي تتوالى فيها المرافعات الدفاعية، والاتهامات الإدعائية، آخذاً بعضها برقاب بعض".^(٥)

ومن جملة المفتربات والأكاذيب الواضحة التي ساقها لامنس في دائرة المعارف الإسلامية (الجزء الأول) ما جاء تحت مادة الحسن بن علي بن أبي طالب : " إن الصفات الجوهرية التي كان يتصف بها الحسن هي الميل إلى الشهوات والافتقار إلى النشاط والذكاء . ولم يكن الحسن علي وفاق مع أبيه واخوته . وقد أنفق خير سنين شبابه في الزواج والطلاق فأحصى له حوالي المائة زوجة عدداً ، وألصقت به هذه الأخلاق السالبة التي المطلق ... وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف ، فقد اختص كلاً من زوجاته بمسكن ذي خدم وحشم ، وهكذا ترى كيف كان يعثر المال أيام خلافته علي التي اشتد عليها الفقر . وشهد يوم صفين دون أن تكون له فيها مشاركة إيجابية ... (وعندما ترك العراق) مشيعاً بسخط الناس عليه ليقبع في المدينة عاد إلى حياة اللهو واستسلم للملذات .. ولم يكن الحسن علي وفاق مع الحسين وإن اجتماعا علي متاهضة ابن الخنفة وغيره من أبناء علي . وتوفي الحسن في المدينة بذات الرثة . ولعل إفراطه في الملذات هو الذي عجّل بميته . وقد بذلت محاولة لإلقاء تبعه موته علي رأس معاوية ، وكان الغرض من هذا الإقام

وصم الأمويين بهذا العار ، وتبرير لقب الشهيد أو سيد الشهداء " الذي خلع علي ابن فاطمة هذا ... "

ولعل المستشرق الأمريكي اليهودي المعاصر ، برنارد لويس (١٩١٦م) الذي يعتبر العقل الموجه لجماعة المحافظين الجدد في البيت الأبيض الأمريكي والذي يتبنى بقوة فكرة صراع الحضارات منذ العام ١٩٥٧م وقبل طرحها من قبل صموئيل هنتغتون في العام ١٩٩٣م ، أكثر المستشرقين حالياً ، عداء لكل ما هو عربي وإسلامي ففي مؤلفاته : الإسلام عبر التاريخ (١٩٧٥م) اليهود في الإسلام (١٩٨٤م) ، عودة الإسلام (١٩٨٥م) ، الساميون والمعادون للسامية (١٩٨٦م) ، الإسلام والغرب ، اللغة السياسية للإسلام (١٩٨٨م) ، الشرق الأوسط (١٩٩٥م) ، أين الخلل ؟ الذي صدر مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١م ، أزمة الإسلام (٢٠٠٣م) وكذلك في مقالات ، ومنها : السياسة والحرب ، التي نشرت في كتاب تراث الإسلام - القسم الأول - (الفصل الرابع : ٢٢٩ - ٣٠٠) لمصنفه : جوزف شاخت وس أ. بوزوروث ، و : جذور الغيظ الإسلامي التي نشرها في مجلة الأتلنتك مانثلي ، الشهرية سنة ١٩٩٠م ، - يري أن الصراع الإسلامي المسيحي هو صراع عقائدي وحضاري حقيقي ، بدأ منذ أربعة عشر قرناً وما زال قائماً . فمؤسس الإسلام " جعل من نفسه قسطنطين " . وبدأ الصدام بين الإسلام والمسيحية في عهده استناداً إلى الآيتين التاسعة والعشرين والثلاثين من سورة التوبة اللتين تفرضان علي المسلمين مقاتلة النصارى واليهود حتى يقبلوا بالإسلام ديناً لهم أو يقبلوا بدفع الجزية وهم صاغرون .

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عؤزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون ﴾ صدق الله العظيم

وعنده أن الفقهاء المساميين نظروا باكراً " لدار الإسلام " و" دار الحرب " لتشريع الحرب علي كل من هو غير مسلم ، وأن الحرب لا يمكن أن تنتهي بين المسلمين وغيرهم إلا بدخول جميع الناس في الإسلام أو بالخضوع له ودفع الجزية .

كما يري أن سبب كراهية العرب والمسلمين الشديدة اليوم للحضارة الغربية والثقافة الغربية الممثلة بأمريكا ، وحقدهم عليها ، هو قوة أمريكا وغناها وحضارتها ، فبعدها كانوا هم سادة العالم والأغنى والأقوى والأعظم حضارة لقرون طويلة علي وجه الأرض ، أصبحوا مهزومين مقهورين يشعرون بالذلل والمهانة إزاء سيطرة وتفوق أمريكا وسائر العالم المسيحي الحر عليهم ، إنهم يحسدون أمريكا علي حضارتها وقوتها ، ويكرهون قيمها وغط حياتها المختلف عن قيم وغط حياتهم ، ويخافونها علي هويتهم واستمرار وجودهم ، انطلاقاً من عدائهم العقائدي والفكري والثقافي - الذي يمثلها أصدق تمثيل أسامه بن لادن - لمكونات الثقافة والحضارة الغربية ذات الأسس اليهودية - المسيحية - وبالتالي فإنه يستحيل الدخول معهم في حوار ، والوصول معهم إلي اتفاق ، وهم لن يخرجوا من ظلمات العصور الوسطى " إلا إذا اقتدوا بالمثال التركي الأناطركي ، وأقدموا علي فصل الدين عن الدولة في حياتهم ، وعلمتوا الدولة في جميع المجالات ، وتخلوا عن مبدأ العداء للغرب المتأصل في عقيدتهم وثقافتهم ، وتبنوا قيم الحداثة ، واحترام حقوق الإنسان : ذكراً أو أنثى ، واحترام القانون والتداول السلمي للسلطة .

والذي لا شك فيه ، أن عداء برنارد لويس السافر والشديد للعرب والمسلمين ، ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ م ، والذي تمثل بنشره مقالة بعنوان : " يجب أن نكون واضحين " في جريدة الواشنطن بوست في السادس عشر من أيلول ٢٠٠١ ، ودعا فيها الإدارة الأمريكية بصراحة إلي غزو العراق والإطاحة بنظام صدام حسين وبغيره من الأنظمة المعادية لأمريكا ، هو أحد أهم أسباب الحرب علي العراق واحتلاله ، بعدما أصبحت فلسفته أو أيديولوجيته هي سياسة الولايات المتحدة الأمريكية المعتمدة حالياً إزاء العالم العربي والإسلامي ، وفي هذا الصدد يقول المستشرق الأمريكي ريتشارد بوليت أستاذ مادة التاريخ في جامعة كولومبيا في كتابه : " التقارب الحضاري الإسلامي المسيحي " عن برنارد لويس : " هذا رجل لا يجب أولئك الذين يدعي أنهم (أي العرب) ضمن مجال اختصاصه ، فهو لا يحترمهم ، ويعتبرهم جيدين وذوي قيمة فقط حينما يبدوون قابلية لتبعية الغرب " .

وبناءً علي ما تقدم ، لا يسعنا إلا أن نقف موقف المؤيد للمنتقدين للاستشراق ، الذين خبروه بحسباً وتقياً وتحليلاً ، ومنهم : حسن حنفي ، علي سامي النشار ، عبد الرحمن بدوي ، مصطفى السباعي ، محمد الجبهي ، جواد علي ، إدوارد سعيد ، بخاصة الذي قامت بينه وبين برنارد

لويس خصومة فكرية وثقافية وسياسية عنيفة وسجال فكري حاد ، منذ أكثر من عقدين من الزمن، علي صفحات مجلة " نيويورك ريفيو أوف بوكس " حول الاستشراق الأنثربولوجي المسيس والمتعالي ، والقضية الفلسطينية .

ولحن نري أن الاستشراق الذي وُلد ونشأ مع بدايات الحملات الصليبية علي بلادنا العربية واستمر ناشطاً مع احتلال الدول الغربية لبلادنا تلك ، إنما وُلد ونشأ وترعرع في أحضان المستعمرين ليكون عوناً لهم علي استعمارنا من طريق نشر المعلومات المشوهة والمغلوطة عن ديننا وفكرنا وأخلاقنا وعاداتنا وحضارتنا ، في الأوساط الغربية وفي أوساطنا أيضاً .

ولكن هل رأينا هذا ، يعني إدانة مطلقة وبصورة عامة من جانبنا للاستشراق بمختلف مدارسه ، لأن بعضاً أو كثيراً من المستشرقين كانوا من اليهود المعادين لديننا وأمتنا ومن آباء الكشلكة المتعصبين لنصرانيتهم الذين لم يحفوا تحاملهم علي ديننا ولا إجحافهم بترائنا الفكري والحضاري وتاريخنا السياسي والاجتماعي ؟ وهلي يجوز لنا ذلك من الوجهة الأكاديمية والمنطقية ؟ وهل ترائنا الفكري والديني يرتفع كله عن النقد ولا يقبل التأويل والاجتهاد واختلاف الآراء ؟ .

إننا نرى ومن دون أن نريد شرف الدفاع عن الاستشراق بوجه خصومه أو مناوئية أو منتقديه ، إن سمة مستشرقين عادين عرفهم القرن التاسع عشر والقرن الماضي ، أكبوا سنوات عديدة وبشغف علي تعلم لغتنا العربية والتنقيب في ترائنا ودراسته من خلال المخطوطات والنصوص القديمة ، اتسمت أبحاثهم في الإسلام وعلومه وترائه بكثير من الشمولية والموضوعية والإنصاف ، لا غللك إلا الاعتراف لأصحابها بالفضل والإعجاب ، علي الرغم مما قد يكون فيها أحياناً من إهانات أو أخطاء أو مغالطات مقصودة أو غير مقصودة ، وقدموا لنا مادة غنية عن ترائنا في مختلف المجالات : الأدبية والتاريخية والفلسفية والعلمية والفقهية والكلامية الخ ، بقي لنا الحق في تقويمها سلباً أو إيجاباً ، ولا أحد يمنعنا من ذلك إلا التقصير من جانبنا أو الجهل بترائنا . وهكذا، ومن خلال نظرنا إلي الاستشراق نظرة حيادية بعيدة عن التقريظ وعن العدائية ، لأن فعل الاستشراق كأبي فعل ثقافي - سياسي قد يحمل الصحة أو الخطأ ، والنفع أو الضرر ، والحسن أو القبح ، فإننا نعتبر أن الكثيرين من المستشرقين كل في حقله وزمنه ، قدموا لنا مادة مهمة مفيدة عن ترائنا الديني والفلسفي والأدبي والعلمي والتاريخي واللغوي ، كنا نحتاجها حتي نبي عليها ونضيف إليها أو نقومها ، وما زلنا نعمل عليها إلي حد بعيد في كل ما يمت بصلة إلي هذا

التراث ، من فلسفة وعلم كلام وتصوف وفقه وعلوم مختلفة ، ولا نعتقد أننا سنستغني عنها مستقبلاً .

ومن هؤلاء المستشرقين الذين لا يمكن تجاهل بحوثهم ودراساتهم ولو كان فيها القليل أو الكثير مما لا نقبله أو نستسيغه ، نذكر : إجنتس جولد تسهير فنحن وإن كنا لا نقبل ما جاء في الفصل الرابع من كتابه : محاضرات في الإسلام ، عن التصوف الإسلامي الذي يرجعه إلى أصول مسيحية وهندية ويونانية الخ استناداً إلى المنهج الفيلولوجي التحليلي الذي يعتمده في دراسة التصوف ، ولا نقبل أيضاً بعض آرائه وأحكامه العامة المتسفة التي جاءت في الفصل الثاني من كتابه : دراسات إسلامية المعروف باسم : العقيدة والشريعة في الإسلام ، والتي يسوقها من غير أدلة مقنعة ، استناداً إلى منهجه الاستباطي القائم علي الحدث في البحث ، من قبيل جهل المسلمين في الأرائل بكيفية أداء الصلاة موافقتها وجهلهم بعدم جواز السلام علي الله ، وجهل المسلمين في الشام بأن عدد الصلوات خمس ، وجهل البصريين (أهل البصرة) بزكاة الفطر ، وأن الحكم الأموي كان بصورة عامة حكماً دنيوياً لا يعبأ بالدين ، وكان تعاطي الخمر ممكناً حتي داخل المسجد ، وكانت دمشق موطن الأنس والمتعة وبيت اللذائذ ومركز الموسيقى ، وأن الحكم العباسي كان حكماً دنيوياً وإن لم يسلم بعض الخلفاء من حياة اللهو والمجون ، وأن الفقه الإسلامي تأثر بالقانون الروماني من خلال مدارس جوستينيان القانونية التي كانت موجودة في بلاد الشام ، ومنها سيرت علي سبيل المثال ، وأن الإمام الشافعي والإمام الأوزاعي اللذين وُلدا في بلاد الشام كان علي معرفة بكثير من القوانين الرومانية وتأثرا بها ، وأن كثيراً من الأحاديث النبوية وُضعت في عهد لا حقه لوفاة الرسول ﷺ من أجل التهذيب الأخلاقي ، ومن أجل الأهواء العقائدية والغايات السياسية ، وأن أهل الرأي كانوا أكثر عناية ودقة بنقد الحديث من أهل الحديث ؛ وكذلك لا نقبل قوله في " دائرة المعارف الإسلامية " : إن محمداً ﷺ قد أخذ شعيرة الصوم من اليهودية الخ ، إلا أننا في المقابل نري أن الفصول المتعلقة بـ : محمد والإسلام ، تطور الشيعة ، علم الكلام وفرقه المختلفة القديمة والحديثة : المعتزلة ، الأشاعرة ، الماتريدية ، الشيعة ، الخوارج ، الإسماعيلية ، الوهابية ، البهائية ، البابية الخ ، من كتابه : محاضرات في الإسلام ؛ وكذلك الفصول الأخرى من كتابه : دراسات إسلامية التي تكلمت علي هزيمة الروح الوثنية الجاهلية القومية الأرستقراطية أمام الروح الدينية الإسلامية الديمقراطية القائمة علي مبدأ المساواة بين الناس والأمم

علي اختلافهم وعلي نشأة الحديث النبوي وتطوره ونقده ، والذي اهتم فيه جولدت سيهر بالكشف عن ميول وأهواء وأغراض أصحاب الحديث أكثر من اهتمامه بمعرفة الحديث نفسه من حيث المرتبة والوثاقة أو الصحة لا يمكن إلا أن تكون مفيدة ونافعة .

ولعل كتاب جولدت سيهر : مذاهب التفسير الإسلامي من أهم الكتب في موضوعه ، فهو يكشف عن اتجاهات الفرق الإسلامية المختلفة في تفسير القرآن ، كتفسير ابن عباس الإمامي الذي يقتصر علي الشرح الحرفي لمعاني الألفاظ وإيراد الشواهد التاريخية المصاحبة أحياناً لتحويل الآيات ، وتفسير الكشاف للزمخشري الذي يعبر عن موقف أهل الاعتزال الكلامي العقلي من تفسير القرآن ، وتفسير الصوفية الباطني (تفسير ابن عربي) الذي يختلف اختلافاً شديداً عن التفسير الأخرى ، وأخيراً التفسير العصري للقرآن الذي يمثل الشيخ محمد عبده وغيره .

ومن كتب جولدت سيهر المهمة أيضاً كتابه : الظاهرية مذهبهم وتاريخهم ، الذي نُشر سنة ١٨٨٤ م ، والذي لم يتعرض فيه فقط لدراسة المذهب الظاهري ، بل تناول بالتفصيل الفقه وأصوله ، وأصول المذاهب الفقهية المختلفة وما بينها من أوجه الشبه والاختلاف .

والشيء اللافت للنظر في مجمل مؤلفات جولدت سيهر أنه ينظر للتاريخ السياسي للإسلام نظرة حركية ، دائمة التفاعل مع الواقع سلباً وإيجاباً ، وبعيدة عن الرقابة والتحجر في شكل واحد من أشكال الدين أو السياسة .

وكذلك نذكر مونتغمري وات (١٩٠٩ م) مؤلف كتب : محمد في المدينة ، محمد نبي ورجل دولة ، الفلسفة الإسلامية والعقيدة ، الفكر السياسي الإسلامي " المفاهيم الأساسية ، تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى ، موجز تاريخ الإسلام ، الأصولية الإسلامية والتحديث ، العلاقات الإسلامية النصرانية ... الخ ، فنحن وإن كنا لا نوافق علي سبيل المثال علي بعض ما جاء في كتاب : الفكر السياسي الإسلامي " المفاهيم الأساسية " من أحكام ومنها : أن الدولة الإسلامية منذ نشأتها وحتى بداية العهد العباسي كانت تركز علي المفاهيم السياسية السابقة للإسلام ، وأنها في جوهرها كانت اتحاداً من القبائل ، وأن " الغنيمة " كانت المطمع الأساسي المحرك للسواد الأعظم من المسلمين المشاركين في حملات التوسع العربية بعد وفاة النبي ﷺ ، وأن التفكير السياسي الإسلامي يخلوا تماماً من ذكر فعلي لمفهوم الحرية وسائر الحقوق الإنسانية الخ ، إلا أننا في المقابل لا يمكننا التغافل عن المادة الثمينة التي تقدمها لنا مجمل كتبه ، والتي تعتبر الإسلام ديناً

دينامياً ودولة ، ومؤسساته السياسية لا تنفصل عن معتقداته الدينية ، وأنه قد أثر تأثيراً شديداً في أوروبا زمن القرون الوسطى وهو اليوم إحدى ست قوي أساسية وهامة في العالم لا يمكن تجاهلها . كذلك نذكر إسبن بلانيوس (١٨٧١-١٩٤٤ م) الذي أرجع التصوف الإسلامي من غير أدلة مقنعة إلى المسيحية عن طريق رهبان الأديرة المنتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وغيرها من الديانات والفلسفات ؛ وفي الوقت نفسه رأى أن المسلمين تركوا ميراثاً صوفياً ضخماً أثر كثيراً في التصوف المسيحي ولا سيما في متصوفي الأندلس عامة كما في الكوميديا الإلهية لدانتى. ومؤلفات الغزالي : العقائد والأخلاق والزهد ، مذهب الغزالي في التصوف ، الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ، مع الشرح والتعليقات المستفيضة عليه ، تأثيرات الإسلام ، الذي أبان فيه تأثير أوروبا والمسيحية بالإسلام الخ ، من الكتب الهامة في موضوعاتها . ويمكن أن نذكر أيضاً :

١- رينولد نيكلسون (١٨٦٨-١٩٤٥ م) الذي حاول أن يثبت تأثير رجال التصوف الأوائل بمذاهب أجنبية عن الإسلام ، ثم تراجع عن آرائه ورأى أن التصوف الإسلامي نشأ في رحاب القرآن والسنة ، وكان تطوره تطوراً إسلامياً خالصاً ومؤلفاته : تاريخ العرب الأدبي ، دراسات في التصوف الإسلامي ، أعلام الصوفية ، فكرة الشخصية في التصوف ، ديوان مثنوي للشاعر جلال الدين الرومي ، اللمع في التصوف للظوسي الخ مفيدة لكل باحث .

٢- لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢ م) الذي اشتهر بدراساته في التصوف الإسلامي العامة وفي الحلاج خاصة ، الذي بذل جهداً كبيراً في تحقيق ديوانه : شرحاً وتعليلاً وتأويلاً ، وهو علي الرغم من أنه اعتبر الحلاج : مسيح الإسلام ولو في هواه والسر علي خطاه ، فإنه رأى أن التصوف الإسلامي قد نشأ نشأة إسلامية خالصة ، مستمداً أصوله من القرآن والسنة وحياة الرسول ﷺ والصحابة ، واستمر كذلك - علي الأقل - في القرون الثلاث الأولى علي نشأته ، وبحوثه في التصوف وبخاصة رسالتيه للدكتوراه : ١- عذاب الحلاج ، شهيد التصوف في الإسلام ، التي تقع في أكثر من ألف صفحة ، ٢- بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي التي تقع في ثلاثمائة وخمسين صفحة ؛ وكذلك أبحاثه الكثيرة عن سلمان الفارسي والكندي وابن سينا وابن سبعين

والقراطة والتصيرية الخ ، التي نشرها في دائرة المعارف الإسلامية ؛ وأيضاً بحته :
تاريخ العلم (١٩٥٧ م) الذي يتناول في فصل منه وياعجاب التراث العلمي العربي ،
تعتبر كراً من المعلومات الثمينة والمهمة في تاريخ الإسلام الديني والروحي والعقلي في
الإسلام ، لا يُستغنى عنها من قبل كل باحث .. ومهما كان رأيه فيها .

٣- ديفيد صموئيل مرجليوس (١٨٥٨-١٩٤٠م) الذي علي الرغم من أن جميع مؤلفاته
المتعلقة بالإسلام : محمد ونشأة الإسلام ، الإسلام ، السيرة النبوية ، العلاقات بين العرب
واليهود الخ ، قد اتسمت بالابتعاد عن الموضوعية العلمية ، وبروح التعصب لأصله
اليهودي ولدانيسته البروتستانتية والعداء للإسلام ، مما جعله محل سخط شديد من قبل
المسلمين ، ونفور من آرائه من قبل المستشرقين ^(٦) ، فإن اهتماماته الأدبية والتاريخية -
وعلي الرغم مما أخذ عليه في شكه في الشعر الجاهلي - ومنها : تحقيق " معجم الأدباء -
لسياقوت الحموي " ووضع فهارس له ، ورسائل أبي العلاء المعري ، وحاسة البحري لا
يمكن إلا الإشادة بها .

٤- آرنديجان فنسك (١٨٨٣-١٩٣٩م) الذي كان عدواً للإسلام ورسوله ، ولشدة
عدائه للإسلام ادعي مثل إجتس جولدت سيهر أن محمداً استقى القرآن والشعائر
الدينية التي أتى بها ومنها : شعيرة الصلاة وشعيرة الصيام من خلاصة الكتب اليهودية
والنصرانية والجاهلية ، كما ادعي أن محمداً اعتمد في بداية دعوته علي اليهود في مكة ،
وعندما انقلبوا عليه هداه ذكاؤه إلي أبي العرب : إبراهيم فقطع صلته بيهود عصره
ووصلها بيهودية إبراهيم ، ويظهر تعصبه جلياً في مؤلفاته : العقيدة الإسلامية نشأتها
وتطورها التاريخي ، محمد والنبوة ، محمد واليهود ، موقف الرسول من يهود المدينة ،
الإسرائيليات في الإسلام ، كما يظهر تعصبه أيضاً في أبحاثه الكثيرة : الأثر اليهودي في
أصل الشعائر الإسلامية ، وكذلك في " المواد " التي كتبها في دائرة المعارف الإسلامية
والذي ضمنها آرائه الخاطئة ^(٧) ، لكنه ومهما كان رأينا فيه فإنه كان من أوائل الذين
خدموا الدراسات الإسلامية خدمة جليلة كمؤلفه الموسوعي : " المعجم المفهرس للألفاظ
الحديث النبوي " الذي وضعه بحسب الألفاظ والترتيب الهجائي للأحاديث النبوية
الواردة في كتب الصحاح الستة وفي مسلك احمد ابن حنبل وسنن الدرامي وموطأ مالك ،

عظيم النفع لجميع الذين يشتغلون في العلوم الإسلامية ، ولا أحد من الباحثين يمكنه الاستغناء عنه .

بيد أنه وبالرغم من حكمنا القاسي علي مجمل الاستشراق ، فإننا نري أن سمة مستشرقين كبار شهدهم القرن التاسع عشر والقرن العشرون ، كتبوا أبحاثاً موضوعية نافعة عن العرب والإسلام ، وأغنوا بها المكتبة العربية والإسلامية ، ومن هؤلاء المستشرقين نذكر :

١- جوستاف فلوجل الألماني (١٨٠٣-١٨٧٠ م) الذي كان أول من أصدر المعجم المقهرس لألفاظ القرآن الكريم سنة ١٨٤٢ ، وكل الذين قاموا من بعده بوضع فهارس للقرآن سواء كانوا من العرب أو المسلمين عيال عليه ، وبذلك فإن عمله يعد خدمة جلية لكل الباحثين وعامة الناس علي حد سواء ، كما أنه كان أول من نشر كتاب : كشف الظنون لحاجي خليفة التركي ، مع ملاحق وفهارس في سبعة مجلدات ، قضي فيه ثلاثة عشر عاماً ، وأورد فيه عناوين خمسة عشر ألف كتاب عربي وفارسي وتركي ، والمجلد السابع منه كناية عن فهرس شامل لأسماء المؤلفين وعناوين الكتب المذكورة فيه ، وهو من أهم الكتب الموسوعية في العلوم الإسلامية وأكثرها فائدة للباحثين .

ومن مؤلفات فلوجل المهمة أيضاً : " المدارس النحوية عند العرب " الذي يتحدث عن مدرستي البصرة والكوفة في النحو ، وسائر المدارس النحوية ، مع ثبت بأسماء النحويين في كل مدرسة وترجمة لهم ، وكذلك : تاريخ العرب (ثلاث مجلدات) ، والكندي الملقب بفيلسوف العرب ، وحياة السيوطي ومؤلفاته ، ومصطلحات الصوفية لابن عربي ، وطبقات الخنفية ، والتعريفات للميد الشريف الجرجاني الخ ، وقد قام بتحقيق كتاب الفهرست لابن النديم ، ولكن موته حال دون نشره ، فقام بهذه المهمة من بعده المستشرق أوغست ميلر (١٨٤٧-١٨٩٢م) الذي نشر النص كما حققه فلوجل .

٢-رينهارت دوزي الهولندي (١٨٢٠-١٨٨٣ م) الذي اهتم بالتاريخ الأدبي والاجتماعي والسياسي للمسلمين في أسبانيا منذ سنة ٧١١ م إلي سنة ١١١٠ م أي من بداية فتح المسلمين للأندلس حتي قيام دولة المرابطين ، فألف كتابه المشهور : تاريخ المسلمين في أسبانيا (أربع مجلدات) الذي يعد حتى اليوم من أجل الموسوعات التاريخية عن الإسلام في أسبانيا ، كما ألف كتاب أبحاث في التاريخ السياسي والأدبي لأسبانيا خلال العصر

الوسيط (مجلدان) ، وهو كتاب مهم في تاريخ المسلمين في الأندلس ، يصحح كثيراً من الأخطاء الشائعة في أذهان المستشرقين الأوروبيين عن تاريخ المسلمين في أوروبا ، ومن مؤلفاته المهمة أيضاً : أخبار بني عباد عند الكتاب العرب (ثلاثة أجزاء) وهو ما زال أهم بحث إلي الآن عن بني عباد الذين حكموا إشبيلية ، ومعجم الألقاب الأسبانية والبرتغالية المأخوذة من اللغة العربية و : معجم مفصل بأسماء الملابس عند العرب ، وقام بنشر كتاب : البلدان لابن واضح اليعقوبي ، وكتاب التبيه في فقه الشافعية لأبي اسحق الشيرازي .

٣- يوليوس فلهاوزن الألماني (١٨٤٤ - ١٩١٨ م) الذي كان عالماً في التاريخ الإسلامي والفرق الإسلامية ، ومن أعماله المقيمة التي لا يمكن إغفالها : تحقيق تاريخ الطبري ، الإمبراطورية العربية وسقوطها ، الأحزاب المعارضة في الإسلام ، الخوارج والشيعة ، تنظيم محمد للجماعة في المدينة ، محمد والسفارات التي وُجّهت إليه .

٤- ت . ج . دي بور الهولندي (١٨٦٦ - ١٩٤٢ م) الذي كان عالماً في الإسلام وتاريخ الفلسفة الإسلامية ومؤلفه : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، الذي تناول علوم اللغة والفقه وأصوله والحديث وعلم الكلام وفرقه والتصوف والفلسفة العربية وأعلامها ؛ وكذلك مؤلفه : الغزالي وابن رشد ، الذي أصدره سنة (١٨٩٤ م) من المؤلفات الهامة التي لا يمكن إغفالها أو تجاهلها .

٥- كارلو الفونسو نلينو الإيطالي (١٨٧٢ - ١٩٣٨ م) الذي اهتم بتاريخ الفلك عند المسلمين وألف فيه كتابه الثمين : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، كما اهتم بتاريخ الأدب العربي والشريعة الإسلامية والفلسفة الإسلامية ، وأثبت بالأدلة علي أن التشريعات المسيحية الشرقية استمدت وجودها من الشريعة الإسلامية وليس العكس ، وقد درّس تاريخ علم الفلك في الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ م ، كما درّس تاريخ الأدب العربي لمدة سنتين بعد ذلك ، وألف فيه كتابه : الأدب العربي منذ بداياته حتى عصر الحكم الأموي ، وكان لمنهجه في تدريس تاريخ الأدب العربي أكبر الأثر في نشأة كبار الأدباء في مصر ، ولا سيما عميد الأدب العربي الراحل طه حسين ، الذي أشاد بعلمه وفضله في كتابه : في الأدب الجاهلي ، ومقالاته الخاصة بالمعتزلة

والقدريّة وفلسفة ابن سينا وابن الفارض الخ التي نشرها في مجلة " الدراسات الشرقية " التي كان المشرف عليها في أثناء شغله أستاذ تاريخ الإسلام في جامعة روما ، مقالات قيمة تدلل علي سعة اطلاعه علي الفلسفة الإسلامية وعمقه ودقته في البحث .

٦- كارل بروكلمان الألماني (١٨٦٨ - ١٩٥٦ م) مؤلف موسوعة : تاريخ الأدب العربي (سبعة أجزاء) التي لا يستغني عنها باحث في العلوم الإسلامية : حديث ، فقه ، تفسير ، علم كلام ، تصوف ؛ ولا باحث في اللغة العربية وآدابها ، لشموليتها ودقتها ، ولا سيما في الفهارس التي اشتملت علي المؤلفات التي كتبها من ترجم لهم بروكلمان ، وما كان عليها من تلاخيص ومن ردود ومن شروح ومن ترجمات ، وكذلك مؤلف كتاب : تاريخ الشعوب والدول الإسلامية ، وهو كناية عن صورة مفصلة وشاملة لتاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ بداية الإسلام وحتى سنة ١٩٣٩ م ، وعلي الرغم مما جاء فيه من الفسادات ومغالطات فإنه يقي مرجعاً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه ، ومن مؤلفات بروكلمان كتاب : العلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وكتاب أخبار الرسل والملوك للطبري ، وهو كتاب هام جداً و عيون الأخبار لابن قتيبة ويمكن القول : أن أبحاث بروكلمان عموماً تتصف بالموضوعية والعمق والشمول ، مما جعله مرجعاً في التاريخ الإسلامي والأدب العربي . قل من لا يرجع إليه أو يتوكأ عليه من الباحثين .

٧- زيفريد هونكة (مستشرق ألمانية معاصرة) وهي معجبة جداً بالأدب العربي والحضارة العربية والأخلاق العربية والتسامح العربي ، إني حد أقامها بالتعصب الشديد للعرب والتحيز لهم ، ومؤلفاتها وأبحاثها تشيد كلها بفضل العرب علي الحضارة الإنسانية عامة والغربية خاصة ، ومن مؤلفاتها : شمس العرب تسطع علي الغرب - أثر الحضارة العربية في أوربا - ويقع في خمسمائة وثمانية وثمانين صفحة ، وهو كتاب عظيم الأهمية يتحدث عن المعجزة التي حققها العرب في ميدان الثقافة والعلوم المختلفة ، انطلاقاً من مبادئ الدين الإسلامي التي تعتبر طلب العلم عبادة ، وتشجع علي السعي إليه أينما كان ، كما يبين مدى تأثير الغربيين بالحضارة العربية والعلوم العربية في مختلف الميادين .

٨- ليفي برونسفال الفرنسي (١٨٩٤ - ١٩٥١ م) الذي اشتغل كثيراً بتحقيق المخطوطات العربية ونشرها ومنها : رسالة في الحسبة لأبي عبد الله السقطي المالقي ، ومن مؤلفاته

الهامة : الخلافة الأموية في قرطبة من عام ٩٢١ إلى عام ١٠٣١ هـ ، أسبانيا المسلمة في القرن العاشر الهجري : النظم والحياة الاجتماعية ، الإسلام في الغرب : دراسات في تاريخ العصر الوسيط ، الحضارة العربية في أسبانيا الخ .

٩- ريجيس بلاشير الفرنسي (١٩٠٠ - ١٩٧٣ م) الذي درس أبو الطيب المتنبّي تحت عنوان : أبو الطيب المتنبّي الشاعر العربي الإسلامي ، وما زالت دراسته أفضل الدراسات عن المتنبّي حتى اليوم ، وترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية ، وقدم له مقدمة هامة جداً ، وألف كتاب تاريخ الأدب العربي (ثلاثة أجزاء) وما زال عليّ الآن من أهم ما كُتب في موضوعه .

١٠- هنري كوربان الفرنسي (١٩٠٣ - ١٩٧٨ م) الذي بالرغم من نظرتة إلى تصوف السهرودي ، وآرائه في المذهب الشيعي الإثني عشر الذي يعتبره من المذاهب الباطنية ، ولا نوافقه عليه ، فإنه يعتبر أفضل من درس الإسلام في إيران ، والتصوف الإيراني ، وقد جاءت دراسته التي تتدلل علي معرفة واسعة في الفكر العرفاني في إيران والعالم الإسلامي ، في أربعة مجلدات : الأول تناول مذهب الشيعة الاثني عشرية ، والثاني تناول السهرودي ، والثالث تناول المخلصين للعشق الإلهي من كبار الصوفيين الإيرانيين وخاصة : حيدر أملي ، والرابع تناول مدرسة أصفهان الفكرية الفلسفية في القرن السابع عشر والتاسع عشر ومنها ملاصدرا الشيرازي ، مؤلف كتاب : الأسفار الأربعة - وميرداماد محمد بن باقر الإسترابادي ، وسعيد القمي ، وأحمد الأحساني الخ

ومن مؤلفاته الهامة أيضاً كتاب : ابن سينا والحكاية ذات الرؤيا الذي يتناول الجانب الصوفي عند ابن سينا اعتماداً علي رسالة حي بن يقظان ورسالة الطير ، وكذلك كتاب : التخيّل للخالق في تصوف ابن عربي الخ .

١١- شارل بيلات **Pellat** (١٩١٤ - توفي مؤخراً) الذي كان يجيد اللغة العربية ، ويكتب فيها عن الأدب والإسلام وقد اهتم كثيراً بدراسة الجاحظ ، ألف : الجاحظ في بغداد وفي سامراء ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، أصالة الجاحظ ، وحقق : كتاب الترييح والتلوير ، كما حقق عدة كتب منها : ديوان ابن شهيد الأندلسي وعني بتفحيح وتصحيح

الفهارس العامة لكتاب : مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (٧ أجزاء) ، وما زالت كتبه عن الجاحظ مرجعاً للباحثين .

ولأن قائمة المستشرقين الذين أغنوا مكتبتنا العربية والإسلامية والفلسفية المتنوعة ، قد تكون كبيرة ، ولا يتسع المجال لذكرهم جميعاً بصورة مفصلة ، فإننا نقول بإيجاز : إن مؤلفات وأبحاث غير من ذكرنا آنفاً مثل : إدوارد حبسون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) وسامبون أوكلي (١٧٠٨ - ١٧١٨) وألكسي جوارفسكي وجاك بيرك وهنري لورست ومكسيم رودنسون وروجيه أرنالدز ودومينيك سورديل وأندرا ميكال وأدريان رولاند وتوماس أرنولد وفلهلم ألفرت وهلموت ريتز ولوثروب سوارد ويوسف فان اس الخ ، أسهمت علي الرغم مما في بعضها من هنات ومآخذ ، في فهم أفضل للإسلام وتراثه وحضارته وتاريخه ، إلي حد أن المستشرق الفرنسي أندره ميكال الأستاذ في الكوليج دي فرانس نال منذ سنوات قليلة جائزة الملك فيصل العالمية بسبب كتاباته الموضوعية عن الحضارة الإسلامية ، وقلة قليلة جداً من الباحثين العرب والمسلمين الذي لا يلجأون في أبحاثهم إلي مؤلفاتهم ولا يزينون هوامشها أو متونها بمراجعهم .

ولشدة إعجاب بعض هؤلاء المستشرقين بديننا وتاريخنا وتراثنا الفكري والأدبي والعلمي والفلسفي ، فإن المستشرق الفرنسي المعاصر روجيه أرنالدز الذي تعلمنا عليه في بداية السبعينات من القرن الماضي ، دعا منذ عقدين من الزمن المفكرين العرب إلي الكف عن تبني الأفكار والفلسفات الغربية الملائمة لمجتمعنا ، والعودة إلي تراثهم الغني بالعلم والدين والفلسفة والتصوف ، لإبداع فلسفة عربية خاصة بهم تضيف علي الفكر الفلسفي العالمي ملامح خاصة ومميزة ، " ما آخذه علي الفلاسفة العرب المعاصرين ، أنهم تأثروا كثيراً بالفكر غير العربي ، إنهم يترجمون كثيراً ، وهذه ظاهرة لافتة ومهمة .. لكن غالباً ما تشكل هذه الترجمات هؤلاء المفكرين المادة الجاهزة التي يعتمدونها لبناء فكرهم الخاص ، وآمل أن يؤسس الفلاسفة العرب فلسفة عربية خالصة ... انطلاقاً من تراثهم وتقاليدهم ، خاصة أن لديهم تراثاً غنياً دينياً وصوفياً وفكرياً ، وأعني بالطبع : الفلاسفة المسلمين. إذاً، يجب أن ينطلقوا من هذا التراث الرائع ليبحثوا علي ضوئه في القضايا المطروحة الآن، فيضيفوا إلي تطور الفكر الفلسفي ملامح خاصة ومميزة " (٨). كما أن المستشرق الفرنسي، مكسيم رودنسون (١٩١٥ - ت/ مؤخرًا). يقول في دراسة له بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الإسلامية: "في عام ١١٨٠ اتمت (ترجمة) المجموعة الأولى من مؤلفات ابن سينا الفلسفية

وأخذت تروج في أوروبا. وكان تأثيرها بالغا. وتبعها ترجمات لفلاسفة آخرين بتلاحق سريع. وهكذا أخذت تتشكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامي بوصفه مهذاً لفلاسفة عظام ... بل لقد جاء وقت كان لفظ "الفيلسوف" يعني فعلياً "المسلم" كما هو الحال بالنسبة إلى أبلارد **Abelard** الذي توفي عام ١١٤٢ ... وخلال عدة قرون نجد أن ابن سينا وابن ارسطو والغزالي في لفلسفة، وابن سينا والرازي في الطب، ومؤلفين آخرين.. نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طباعة أعمالهم ويعلق عليها وتدرس، وهكذا انتشرت الحقائق ... التي ألفها كتاب من أمثال فولتير المعجب بالحضارة الإسلامية ... وإدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) الذي وضعت تقديراته العالم الإسلامي في مكان رفيع في التاريخ الثقافي والفكري للإنسانية.^(٩)

كذلك يقول المستشرق الروسي أليكس جوارفسكي في كتابه : الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم: "في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ... أصبح فيهما علماء المسلمين وفلاسفتهم أساتذة ومعلمين بالنسبة لمسيحي أوروبا، فكان لهم نفوذهم القوي وهيتهم العظيمة وتأثيرهم الذي لا يضاهاى، ووسعت الترجمات من العربية إلى اللاتينية آفاق المعرفة الأوروبية للفكر العلمي - الفلسفي - القديم ... كان تأثير الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى شاملاً ميادين كثيرة ومهيماً على جوانب متعددة. ويمكن القول إن هذا التأثير عمّ - بدرجة كبيرة أو صغيرة - مستويات الحياة الأوروبية جميعاً ... بما في ذلك النواحي المعيشية والتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة والدين ... والحقيقة أن الإسلام لم يعط أوروبا معارف جديدة وحسب، بل أثر جوهرها في طبيعة العمليات الثقافية وتطورها وساعد في كثير من الحالات على تشكل الوعي الذاتي الأوروبي..."^(١٠).

ويبقى أخيراً أن نشير إلى أن سمة مستشرقين فهموا الإسلام حق الفهم ، وأعجبوا به ، فاتخذوه ديناً لهم وألقوا فيه ومن هؤلاء نذكر : المستشرق الفرنسي الفونس إيتين دينيه (١٨٦١ - ١٩٢٩ م) الذي أعلن اعتناقه الدين الإسلامي في الجامع الجديد بمدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ م وتسمي باسم : ناصر الدين دينيه ، ودُفن في بلدة بوسعادة بالجزائر بناءً علي وصيته التي جاء فيها: أنه لم يسلم لمطمع أو مغنم ، وإنما لقناعته التامة بالإسلام ومبادئه ، ومن مؤلفاته كتاب : أشعة خاصة بنور الإسلام ، الذي يرد فيه علي أباطيل وافترافات المستشرقين أمثال : ديفيد صموئيل مرجليوث ، والأب هنري لامنس وغيرهما ، الذين يرون أن الإسلام لم يأت بشيء جديد عما سبقه

من ديانات وفلسفات ، وكتاب : الشرق كما يراه الغرب الذي يتحدث فيه عن الصورة المشوهة التي في أذهان المستشرقين الغربيين عن الشرق وأهله و : السيرة النبوية التي يروي فيها سيرة الرسول ﷺ اعتماداً علي ما جاء في القرآن الكريم ، والأخبار الصحيحة التي جاءت في سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وكتب الصحاح ، وتاريخ الطبري ، و : محمد رسول الله (بالاشتراك مع سليمان ابن إبراهيم) وهو كتاب قيم جداً ، يدل على فهمه العميق للإسلام ، ويورد فيه بدقة علي تجني وافتراءات المستشرقين علي الإسلام ورسوله .

كذلك نذكر المستشرق الفرنسي روني جينون (١٨٨٦ - ١٩٥١ م) الذي اعتنق الدين الإسلامي وتسمي باسم : الشيخ عبد الواحد يحيى ، وعني بالدراسات الإسلامية والصوفية؛ وكان معجباً بالحضارة الإسلامية ، وقد قضى العقدين الأخيرين من حياته في القاهرة ومات فيها سنة ١٩٥١ م ، ومن مؤلفاته : أزمة العالم الحديث و : الشرق والغرب .

ونذكر أيضاً المستشرق الفرنسي دنيس غريل الذي اعتنق الإسلام واتخذ لنفسه اسم : محمد ابن عبد الله وأقام في المدينة المنورة مدة سنتين، وهو حالياً يدرس في جامعة باريس السوربون . كما نذكر المستشرق النمساوي فيس بولد فايس الذي اعتنق الإسلام سنة ١٩٢٦ في حيدر آباد ، وكان معجباً بمبادئ الإسلام وتاريخه والحضارة الإسلامية ، وله مؤلف مشهور بعنوان : الإسلام علي مفترق الطرق ، وقد جاء فيه أن تأخر المسلمين واستسلامهم إلي واقعهم المرير ، واستغراقهم في سبات عميق ، عائد إلي ابتعادهم عن جوهر الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، والإسلام موجوداً فيهم جسداً بلا روح ، وعندما تعود الروح إلي الجسد تدب الحياة في عقولهم ونفوسهم وقلوبهم من جديد ، إن علي المسلمين أن يستيقظوا من نومهم وتكاسلهم وتواكلهم ويعودوا إلي دينهم الصحيح لكي يستعيدوا ماضيهم الجيد ، وهم إذا فعلوا ذلك فإنهم يتوحدون كما توحدوا منذ أربعة عشر قرناً ويصبحون قوة عظيمة في كل شيء ويصبح حالهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالسهر والحمي ، إن الإسلام ليس ديناً لأمة دون غيرها ولا لزمان دون زمن ، ولا لمكان دون آخر ، بل هو دين يصلح لكل الأمم ولكل الأقاليم ولكل مكان وزمان وحال ، والعرب والمسلمون ليسوا بحاجة علي تبنى ثقافة الغرب وفكره وفلسفته وحضارته لكي يصبحوا أصحاب ثقافة وفكر وفلسفة وحضارة ، فهم كانوا كذلك قبل الغرب وعكسهم أن يعودوا ثانية علي ما كانوا عليه إذا ما شاءوا ذلك ، وأوروبا اليوم مدينة بنهضتها من

ظلام القرون الوسطى الدامس إلى فلسفتهم وحضارتهم ، ومن مؤلفاته أيضاً : أصول الفقه الإسلامي ، الطريق غلي مكة ، مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام .

وهكذا فالمستشرقون يتوزعون بين فئات ثلاث : فئة منهم نظروا إلى الإسلام وتراث المسلمين من خلال مرآة الحقد والعداء ، فزعموا أن الإسلام والفكر الإسلامي علي اختلافه ذور أصول يهودية ومسيحية ورومانية ويونانية وبوذية وفارسية ... الخ ، وأن الإسلام في بيته : نصاً ، ونشأة ، ومسيرة ، يقوم علي العنف والسيف ، فئة أخرى لم تحف عقاندها ولا غاياتها ، ولكنها قدمت صورة حقيقية عن الإسلام وفكره وفلسفته وعلومه وحضارته الخ ، علي الرغم مما شاب تلك الصورة أحياناً من افتراءات وتشويه ، فئة ثالثة أعجبت بالإسلام وفلسفته وحضارته ، وردت أحياناً علي بعض المفترين عليه ، وبعض المستشرقين من هذه الفئة اعتنق الإسلام ديناً وألف الكتب رداً علي المعادين له .

مرجعية مقتضبة

- (١) بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة المستشرقين ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤ م .
- (٢) بدوي ، عبد الرحمن ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية - دراسات لكبار المستشرقين - ط٣ ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ م .
- (٣) بدوي ، عبد الرحمن ، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ، الكويت ، وكالة المطبوعات ١٩٧٨ م .
- (٤) بدوي ، عبد الرحمن ، شخصيات قلقة في الإسلام ط٣ ، الكويت ، وكالة المطبوعات ١٩٧٨ م .
- (٥) بدوي ، عبد الرحمن ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ، بيروت ، الدار العالمية ، (لا . ت) .
- (٦) دينيه ، إيتين ، إبراهيم ، سليمان ، محمد رسول الله ، دار المعارف بمصر ، (لا . ت)
- (٧) ديوان الحلاج ، إعداد عبده وازن ، بيروت ، دار الجديد ، ١٩٩٨ م .
- (٨) روزنتال ، فرانكز ، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٨٠ م .
- (٩) ستودارد ، لوثرروب ، حاضر العالم الإسلامي ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧٣ م .
- (١٠) سعيد ، إدوارد ، الاستشراق ... ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٩٥ م .
- (١١) السباعي ، مصطفى ، الاستشراق والمستشرقون : ما لهم وما عليهم ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .

- (١٢) شاخت ، جوزف ، تراث الإسلام - القسم الأول - عالم المعرفة ، الكويت ، آب ١٩٧٨ م
- (١٣) العقيلي ، نجيب ، المستشرقون (ثلاثة أجزاء) ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
- (١٤) ليو بولد فايس ، الإسلام علي مفترق الطرق ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٤٦ م .
- (١٥) المقداد ، فزاد ، الإسلام وشبهات المستشرقين ، بيروت ، المجتمع العالمي لأهل البيت ، (لا . ت)
- (١٦) منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، من قضايا الفكر الإسلامي كما يراها بعض المستشرقين ، طرابلس الغرب (لا . ت)
- (١٧) مجموعة من الباحثين ، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه ، ترجمة وإعداد هشام صالح ، بيروت ، دار الساقى ١٩٩٤ م .
- (١٨) النشار ، علي سامي ، نشأة افكر الفيلسفي في الإسلام ، ج ٣ (الزهد والتصوف) ، القاهرة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م .
- (١٩) هونكة ، زيغريد ، شمس العرب تسطع علي الغرب ، ط ٣ ، بيروت ، المكتب التجاري ١٩٧٩ م .
- (٢٠) واط ، مونستغمري ، الفكر السياسي الإسلامي " المفاهيم الأساسية " ، بيروت ، دار الحدائة ، ١٩٨١ م .
- (٢١) واط ، مونستغمري ، أئسر الحضارة العربية الإسلامية علي أوربا ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨١ م .

الهوامش:

- (١) انظر : مكسيم رودنسون ، الفصل الأول من كتاب : تراث الإسلام - القسم الأول ، عالم المعرفة ، آب ١٩٧٨ م ، ص ٣٤ ، ٣٥ و : فرانتز روزنتال ، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص ١٧ ، ١٤
- (٢) انظر علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفيلسفي في الإسلام ج ٣ ، دار المعرفة ، مصر ١٩٩٩ ، ص ٢٥ . و : ديوان الخلاج ، دار الجديد ، بيروت ١٩٩٨ .
- (٣) انظر : عبد الرحمن بدوي ، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتي نهاية القرن الثاني ، وكالة المطبوعات ، الكويت . ١٩٧٨ . ص ٣٣ ، ٣٥ .
- (٤) ط ٣ ، دار المعارف ، بمصر ص ٤٢
- (٥) ص ٥٨ ، (نقلاً عن كتاب : محمد رسول الله ، لإيتين دينية ، ص ٥٤)

-
- (٦) انظر عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ص ٦٥ - ٧١
- (٧) تأسست دار المعارف الإسلامية في هولندا مع بدايات القرن الماضي ، وكان المشرف عليها عند تأسيسها : ألفنسك وقد صدر الجزء الأول منها ١٩١٣ م
- (٨) جريدة النهار البيروتية ، تاريخ ٦ / ٤ / ١٩٨٥ م (مقابلة)
- (٩) عالم المعرفة، تراث الإسلام، القسم الأول، ١٩٧٨م، ص ٤٠ - ٤١ ، ٥٢ ، ٦٧ - ٦٨ .
- (١٠) عالم المعرفة عدد ٢١٥ ، ترجمة: خلف محمد الجراد، ١٩٩٦م، ص ٢٨ ، ٣٣ ، ٢٢٢ .